Kafkas Üniversitesi
İlâhiyat Fakültesi Dergisi
Kafkas University Faculty of
Divinity Review
www.dergipark.org.tr

Doi:10.17050/kaüifd.T.2021-1-928904
16(8):476-493,2021

الموضوعات الشعرية الشائعة في ديوان الإمام الشافعي

ـ دراسة وتحليل ـ

Mahmoud ALGUNIED*

Sehil DERSEVI**

ملخّص

من خلال هذا البحث الوجيز نريد أن نقف على أهم الموضوعات التي تناولها ديوان الشافعي بشيء من التحليل والنظر المفيد، ولا شك أن طبيعة تلك الموضوعات، مع طرق التعبير والتصوير الأدبي فيها، وأسلوب تناولها المميّز، كل ذلك كان له أكبر الأثر في الحيوية المستمرة في تلك الأشعار، حتى تناقلتها وتعاقبت على حفظها الأجيال المسلمة، فما زالت أشعاره وإلى يومنا هذا محط اهتمام الأدباء والباحثين، وهناك الكثير من الأقوال التي قيلت في حقه بهذا المعنى، إلا أننا سنكتفي بذكر واحدة منها لضيق المقال، يقول الجاحظ : "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فلم أر أحسن تأليفا من المُطَّلِبِي -يقصد الإمام الشافعي- كأن فاه نظم دراً إلى درٍ" ، ولوأردنا تقصي كل الموضوعات التي تناولها الإمام الشافعي في ديوانه لطال بنا المقال، ولقصر منا الجهد أن نعطيه حقه من خلال مبحث قصير، فلذلك سوف نقتصر على الموضوعات الهامة التي تحمل في طياتها دعوة إلى ما فيه صلاح الفرد والمجتمع، كالدعوة إلى: العلم، تزكية النفس، الحب، التقوى، الزهد، النصيحة، وغيرها من المواضيع المهمة التي تناولها رضي الله تعالى عنه في ديوانه.

الكلمات المفتاحيّة: *الإمام الشافعي، الديوان، ديوان الشافعي، الشعر، الأدب .*

İmâm Şâfi'î Divânında Yaygın Şiir Konuları

-Araştırma ve İnceleme-

Mahmoud ALGUNİED

Sehil DERSEVİ

* Instructor, University of Kafkas Faculty of Theology, Department of Basic Islamic Sciences, Branch of Arabic Language and Rhetoric, Kars, Turkey.
Öğr. Gör., Kafkas Üniversitesi İlâhiyat Fakültesi, Temel İslâm Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, Kars, Türkiye.
mahmudaljunied210@gmail.com **ORCID** 0000-0001-8941-707X

** Assist. Professor, University of Karabuk Faculty of Theology, Department of Basic Islamic Sciences, Branch of Arabic Language and Rhetoric, Karabuk, Turkey.
Dr. Öğr. Üyesi, Karabük Üniversitesi İlâhiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, Karabük, Türkiye.
sahlder@hotmail.com **ORCID**: 0000-0002-1774-2460

Type / Türü: Research Article / Araştırma Makalesi
Received / Geliş Tarihi: 27 April / Nisan 2021
Accepted / Kabul Tarihi: 28 Mayıs / Mayıs 2021
Published / Yayın Tarihi: 11 July / Temmuz 2021
Volume / Cilt: 8; **Issue / Sayı:** 16; **Pages / Sayfa:** 476-493.
Suggested ISNAD Citation: Mahmoud Algunied, Sehil Derşevi "İmâm Şâfi'î Divânında Yaygın Şiir Konuları -Araştırma ve İnceleme-". *Kafkas Üniversitesi İlâhiyat Fakültesi Dergisi*, 8/16 (Temmuz-July 2021), 476-493.
www.dergipark.org.tr

Öz

Bu çalışmada İmâm Şafi'înin divanında kişiye ve topluma yönelik ele aldığı konular üzerinde durularak analiz ve değerlendirmelerde bulunulacaktır. İmâm Şafi'înin divanında kullanmış olduğu kendine özgü üslubu, edebi tabir ve tasvirler şiirlerinin canlılığını kaybetmeden varlığını sürdürmesini sağlamıştır. Ünlü edebiyatçı ve şair Câhız, Şafii'nin Divanı ile ilgili olarak "Belagat alanında uzman olanların kitaplarına baktım el-Muttalibî'nin kitabından daha güzelini görmedim. Şafii sanki sözcükleri ipe dizilen inci taneleri gibi bir araya getirmiştir." ifadesi ile Şafi'înin eserinin edebi yönünün güçlülüğünü ve eserin kalitesini gözler önüne sermektedir. Şafii'nin şiirleri Müslüman nesiller tarafından ezberlenerek kesintisiz bir şekilde sonraki nesillere aktarılmış, bu sayede günümüze kadar ulaşmış, tarihi süreçte birçok edebiyatçı ve araştırmacının ilgi odağı olmuştur. Şafi'înin Divan'ı ile ilgili yapılan çalışmalarda eser pek çok açıdan ele alınarak değerlendirmeye tabi tutulmuştur. Fakat ilgili değerlendirmelerin tamamına yer vermek çalışmamızın çerçevesini aşacağından çalışmada yalnızca Şafi'înin kişiyi ve toplumu ilme, takvaya, nefis terbiyesine, zühde, sevgiye davet ettiği kişinin ve toplumun ıslahına yönelik konular ele alınacaktır.

Anahtar Kelimeler: *İmam Şafii, Divan, Divan-ı Şafii, Şiir, Edeb.*

سبب اختيار البحث

ربما لم نعد نرى عهداً كان فيه أئمة الإسلام علماء موسوعيين، يلمون فيه من كل علم بطرف، بل بأطراف، فكان أحدهم يجمع إلى علمه بمسائل الفقه والتفسير والحديث والأصول وغيرها من أمهات العلوم الشرعية، إلماماً واسعاً بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وأنسابهم. ولم يكن شأن العالم الحفظ والترديد فقط، فما أكثر الأبيات الشعرية التي نَقلتها لنا المصادر، مما جادت به قرائح أولئك الأئمة والفقهاء، ومن هذا المدخل نريد أن نلج إلى الحديث عن ديوان الإمام الشافعي، فقد حفلَت كتب الأدب القديم ومصادره - الموثوقة فضلا عن عمومها – بأشعار له رضي الله عنه، فجاء من ضم بعضها إلى بعض حتى طبعت في ديوان واحد، فيه أكثر تلك الأشعار المبثوثة في الكتب، وقد قُيّض لهذا الديوان قبول واستحسان واسع وذيوع بين طوائف الناس، العالِم منهم والعامي، وانتشرت مطبوعات مختارة منها في البيوت والأسواق ومحلات التجارة، ولهذا الأمر أسباب لا تخفى، فهذه الأشعار كلها قريبة من نفس القارئ، تخاطب ضميره ووجدانه، مثلما تناقش فكره وعقله، وهي تجمع بين السهولة في ألفاظها والرصانة في أسلوبها، وتفيض بعد ذلك بمعاني الحكمة والموعظة الرقيقة في رصف شعري وإيقاع موسيقي محبب إلى النفوس، فمن هنا سرت بين الناس، وحفظها ما لا يحصى عدداً من الخلق، وتكلم بها الخطباء واعِظين على المنابر. ولعل ما سبق يلخص الأسباب التي دعتني لاختيار هذا البحث، سائلاً المولى الرحمن الرحيم أن يعنينا لبلوغ المراد منها، فهو نعم المعين.

الدراسات السابقة في هذا البحث

في الحقيقة من خلال الاطلاع على الدراسات السابقة لم أجد من انتهج المنهج الذي التزمته، ومن بحث فيه التزم بذكر الأشعار فقط، دون أن يتطرق ذكر الشروح والتوسع فيها، ومثال ذلك شرح الدكتور عمر الطباع لديوان الإمام الشافعي، الذي اعتمدت عليه في نقل أشعار الإمام الشافعي، كل في موضعه.

أهمية الدراسة وأهدافها

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يظهر للقارئ المعاني الكامنة التي أرادها الشافعي في خفايا أشعاره، ولذلك تجدر بنا الإشارة إلى أن الأشعار التي ذكرها الشافعي في ديوانه لا تقتصر على المعنى الظاهر، بل لا بد من الغوص إلى

أعماقه لنستخرج من ديوانه معانٍ تساعد في ترقية الإنسان في أقواله وأحواله وأخلاقه، فهذه الدراسة تعطي مادة تربوية جليلة يمكن أن يستفيد منها المسلم في حيلته الدنيا.

صعوبات البحث

من المعلوم أن البحث في المواضيع العلمية يحتاج إلى عناء وجهد، وإن كان هذا الجهد والعناء له لذة ومتعة في حال الوصول إلى نتائج، لكن لا يمكن إنكاره، وهذا البحث الذي يحتوي على دراسة بعض المواضيع العامة في شعر الإمام الشافعي يحتاج إلى كثير من المصادر والمراجع المعتمدة وهذا مالم أستطع الوصول إليه بالشكل الذي يسهل للباحث عملية البحث.

مخطط البحث

اشتملت هذه الدراسة على ما يلي:

تمهيد، ونبذة عن ديوان الإمام الشافعي، وتعريف بالإمام الشافعي، وفصلان، يحتوي كل منهما على عدة مطالب، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع، هذا ما سندرسه في هذا البحث بشيء من التفصيل والاختصار دون الإخلال بتمام المعنى.

وقبل أن نشرع في مضمون تلك المواضيع لا بد لنا أن نتعرف أولاً على الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، من خلال التطرق إلى حياته ومسيرته العلمية، ومن ثم نعرج على مكانة الشعر عنده بدراسة تميل إلى شيء من الاختصار والتبسيط مع ذكر تمام المعنى بدون زيادة أو نقصان بإذن الله تعالى.

أولا: تعريف بالإمام الشافعي:

اسمه ونسبه ولقبه:

هو "محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب" [1]، وكان يكنى رضي الله تعالى عنه بأبي عبدالله واشتهر بالشافعي، "والشافعي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، لأن المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشفاء بنت هاشم بنت عبد مناف أخت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أم الشافعي" [2]، وبذلك نرى أن نسب الإمام الشافعي يتصل بنسب الرسول عليه الصلاة والسلام مما زاده رفعة ومكانة وعلماً وورعاً.

ولادته:

1 الخطيب البغدادي، أبو بكر المشهور بالخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح: د بشار عواد معروف، دارالغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الأولى 2002م، 392/2

2 تاريخ بغداد، 392/2

"ولد الإمام الشافعي في سنة خمسين ومئة" [3]، "وكانت ولادته بمدينة غزة، وقيل بعسقلان، وقيل باليمن، والأول أصح" [4].

حياته وشخصيته العلمية:

من خلال الإطلاع على الكثير من المصادر والمراجع نجد أن الإمام الشافعي ترعرع بمكة المكرمة وعاش فيها بعد فقد والده، وكان في السنتين من العمر، وتقول الروايات انه عاش فقيراً لا يملك شيئاً، حتى قيل أنه كان يداوم على دروس العلم في المسجد الحرام، وما كان يملك أجرة المعلم آنذاك، حتى أنه قال عن نفسه: "كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وأحفظ الحديث أو المسألة" [5]، ثم نشأ رحمه لله تعالى مع العلم والعلماء، واشتهر بين الناس بورعه وتقواه وكرمه وغيرها من الصفات الحميدة، حتى غدا صاحب مذهب يقتدى به في كل زمان وإلى يومنا هذا، فقد قيل: "اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك، على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه" [6]، ورواية الشافعي عن نفسه وعن شخصيته العلمية تفي بأن تتكون أمامنا فكرة عامة عن علمه من البداية حتى وفاته رحمه الله تعالى، فقد بدأ مسيرته بالأدب والشعر، ومن ثم تحول إلى العلوم الدينية، وكان أول ما بدأ به دراسة الموطأ، ثم برع في باقي العلوم وخاصة علم الفقه وأصوله.

وفاته:

"مات في آخر يوم من رجب، سنة أربع ومائتين، وعاش أربعاً وخمسين سنة" [7]، رحمه الله تعالى.

ثانيا: مكانة الشعر عند الامام الشافعي: لا شك أن الإمام الشافعي استهل حياته بكتابة الشعر، وخاصة في ريعانة شبابه، فجل ما كتبه من الشعر إنما كان ذلك قبل أن يتحول إلى الفقه وأصوله، ربما لم تذكر المصادر والمراجع المعتمدة شيئاً في حق ذلك، وإنما تم استخلاصه اجتهاداً من الكلام الذي أورده مصعب بن عبدالله الزبيري، بل ربما كان السبب الرئيس في تخلي الإمام الشافعي عن نظم الشعر، وتحول جلّ اهتمامه إلى علوم الفقه وأصوله، عن: "مصعب بن عبد الله الزبيرى، قال: كان الشافعي رحمه الله فى ابتداء أمره يطلب الشعر أيام العرب والأدب، ثم أخذ فى الفقه، قال: وكان سبب أخذه فيه أنه كان يسير يومًا على دابة له وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعى ببيت شعر، فقرعه كاتب أبي بسوطه، ثم قال له: مثلك يذهب بمروءته فى مثل هذا، أين أنت من الفقه؟ فهزه ذلك، فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة، ثم قدم علينا، يعنى المدينة، فلزم مالكًا رحمه الله" [8]. وهنا تتجلى عناية الله تعالى به، فلا شك أن

3 المزي، يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: دبشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى 1980م، 376/24

4 ابن خلكان، أبو العباس ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، دار صابر بيرون، الطبعة الأولى 1971م، 165/4

5 الرازي، أبو محمد التيمي الحنظلي الرازي بن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، تح: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 2003م، ص20

6 مرجع سابق، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان 166/4

7 مرجع سابق، آداب الشافعي ومناقبه، ص21

8 النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تخريج: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، 46/1

مهنة طالب العلم من أشرف المهن وأعظمها، فقد اختصه الله تعالى بأجل العلوم، وكتب له أن يخلد اسمه مقروناً بمذهبه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الإمام مالك رحمه الله في حقه: "يا محمد اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، ثم قال: نعم وكرامة" [9].

و إن المتأمل في حياة الشافعي ليجد وبكل وضوح أن موقف الشافعي من الشعر والشعراء لم يصل إلى حدّ المدح، وكذلك لم يصل إلى حد الذم، لكنه في كلا الحالتين كان يتعامل بحذر، فلا إفراط ولا تفريط، وهذا ما صرح به في أبيات له:

"ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

وأشجع في الوغى من كل ليث وآل مهلب وبني يزيد

ولولا خشية الرحمن ربي حسبت الناس كلهم عبيدي"[10].

المبحث الأول

مكانة الإمام الشافعي عند الشعراء وتعريف بديوانه

المطلب الأول: مكانة الشافعي عند الشعراء:

لعل أفضل ما قيل في حق الشافعي رحمه الله تعالى أنه كان ذو عطاء فكري بارز، وفي كافة النواحي العلمية الدينية، إلا أن ما يهمنا في هذا المقام هو ما قدمه الإمام الشافعي في الأدب والشعر، الذي ثبت عنه رضي الله عنه من المصادر الموثوقة، وإننا نجد كثيراً من الرواة والأدباء والمفكرين قد أثبتوا ما ورد عن الشافعي من الشعر وما نسب إليه، وأوردوها ووضعوها في مؤلف، عُرف بديوان الشافعي، وبهذا تظهر لنا جلياً مكانة الشافعي عند هؤلاء الأدباء والمفكرين، فمن ما قيل في حقه من جهة الأدب والشعر، ما أورده الرومي الحموي في كتابه عن المبرد قوله: "كان الشافعي من أشعر الناس وآدب الناس وأعرفهم بالقراءات" [11]، وكذلك ما ورد في معجم الأدباء عن ابن خزيمة قوله: "سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الفقه قلت: هو بهذا أعلم" [12]، وكذلك الحال عند الربيع بن سليمان، فإنه يقول: "كان الشافعي عربي النفس، عربي اللسان" [13]، ويضيف أبو نعيم بن عدي الحافظ قوله: "لو رأيت الشافعي، وحسن بيانه، وفصاحته لعجبت، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة، لم نقدر على قراءة كتبه لفصاحته" [14]، ومثل هذه الأقوال والآراء في حق الإمام الشافعي كثيرة جداً، وبمجملها تصب في معنى واحد، ألا

9 اليحصبي، أبو الفضل بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: جملة من العلماء، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، الطبعة الأولى، 177/3

10 الشافعي، محمد بن ادريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، شرح: د عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ص60

11 الرومي الحموي، شهاب الدين الرومي الحموي معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الاولى 1993، 2409/6

12 مرجع سابق، معجم الأدباء 2402/6

13 ابن عساكر، أبو القاسم المعروف بابن عساكر، تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر 1995م، 372/51

14 الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث القاهرة، الطبعة 2006م، 268/8

وهو أن الشافعي قد أوتي ملكة فكرية، صاغ من خلالها نصائح دينية تربوية قد تخلد ذكرها، وأخذها الناس وجعلوا منها مرجعاً يرجعون إليه في مواقف الخطب والوعظ والإرشاد.

المطلب الثاني: تعريف بديوان الشافعي:

كنا قد ذكرنا فيما سبق أن الإمام الشافعي قد كتب في الأدب والشعر في بدايات حياته وقبل أن يتحول إلى العلوم الدينية، إذ كان لأشعاره ذلك الأثر البارز في نفوس غالب أطياف المجتمع- المجتمع الإسلامي – فالأمة تلقته بالقبول، وتناولته منذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا، لما فيه من توصيات أدبية أخلاقية تدعوا الشباب المسلم لما فيه الخير له في دينه ودنياه، ولا أخفي أنني حين تعمقت بالبحث في ديوان الشافعي من خلال عدة طبعات موجودة لم أجد الكثير من الأشعار المنسوبة إليه في المصادر الموثوقة والمعتمدة، بل إنني لم أجدها إلا في وسائل التواصل الاجتماعي، والتي لا يمكن أن يُعتمد عليها كمصدر ومرجع، إذ إنها تفتقد في كثير من الأحيان إلى المصداقية، وفي الغالب تعتمد على النقل دون التوثيق، ودون نسبة الأقوال لأصحابها الحقيقيين، وهذا من الطبيعي، وخاصة في الداووين، إذ كثيراً ما نجد من الأشعار تنسب لشاعر معين وفي الحقيقة ليست له، فنحن بين شاعر قد ظُلم لم يصل إلى حقه، وبين شاعر قد أخذ أكثرمن حقه بالشهرة والسمعة العلمية، وكل ذلك يعود إلى عدم التوثيق والتحقق من صحة النقل، وأضرب مثالا على ذلك: القصيدة التي نسبت إلى الإمام الشافعي، مؤلفة من عشر أبيات تقريباً، والتي يحفظها أغلب الخطباء والوعاظ وأصحاب الاختصاص، ولا داعي لسردها خشية الإطالة، يقول في مبتدئها، المرء يعرف في الأنام بفعله، منتهية: من يعمل المعروف يجز بمثله، فإنه عند الرجوع إلى المصادر الموثوقة لم نجد شيئا من هذا البتة، فلم تنسب إلى الإمام الشافعي إلا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي المليئة بالأوهام والأكاذيب، عداك عن ذلك كله ما رأيناه من الاختلال الواضح في الوزن والعروض والتركيب، وحتى أن ركاكة المعنى في بعض الأبيات واضحة. ولذلك حرصت أن لا أنقل من ديوان الشافعي إلا ما ثبت عندي صحة نسبته له، موثقا ذلك من الدواوين المنسوبة المعتمدة، ولا أخفي نيتي المستقبلية في دراسة ديوان الشافعي بأكمله مبيناً بعون الله تعالى وإرادته القول الفصل فيه، فقد كثر الحديث في حق هذا الديوان بين مصدق ومكذب وبين إفراط وتفريط.

المبحث الثاني

المواضيع الشعرية العامة الشائعة التي تناولها الإمام الشافعي في ديوانه

قبل أن نلج في المواضيع العامة في شعر الشافعي، لا بد أن نذكر الأصالة الفكرية التي اتصف بها من خلال التجديد المتواصل لمفاهيم أشعاره الواردة في الديوان، فليس شيء أقوى برهاناً على فكرة من تصديق الواقع لها، وهذا ينطبق على ديوان الإمام الشافعي من حيث مخاطبتُه لوجدان الناس العفوي والواضح، وانسجامه مع محاكماتهم المنطقية للأشياء، وهو كما قلنا في مواضيع شعره صاحب تجديد، بدليل أنه فرض لنفسه مكانا في حافظة المثقف المسلم، بل ربما العامّي معه أيضا، حيث يحتفظ كل واحد منا في ذاكرته بشواهد شعرية تدعم الرأي الذي يرويه ضمن موضوعات معينة، وتحضرنا في هذا السياق عبارة مدح بها أحد رجالات العلم تقول: "أنسى مَن قبلَه، وأتعبَ مَن بعده"! فهذا حال الإمام الشافعي في الحِكم التي أوردها في شعره بعد أن أخذت مكانها الجديد في عقول الناس، فهذه الحكم ليست جديدة

فحسب بل هي أصيلة، بمعنى أنها صحيحة وراسخة وعميقة، استطاعت أن تثبت على مر السنين وصروف الزمان، ولو أنها عبّرت عن حاجات وقتية قاصرة لزالت سريعاً بعد حين، ولكنها بقيت إلى يومنا هذا، فهذا أكبر دليل على أصالتها، نفهم ذلك تماماً وتترسخ الفكرة أمامنا عندما نقيسها على ميدان آخر من ميادين الفن المعاصرة، فلوحة الموناليزا التي راح يرسمها ليوناردو دافنشي حتى أتمّها بين عامَي 1503-1510م، حيّرت الألباب بروعة رسمها وموهبة صاحبها، حين عبّر عن شيء عميق مستقر في أعماق كل إنسان، فمن أجل ذلك بقيت لوحته على مر الأزمان والعصور، وصحّ أن نقول إنها عبّرت عن موهبة أصيلة في روح مبدعها، وكذلك حال أشعار الإمام رضي الله عنه في رأينا.

المواضيع الشائعة في شعر الإمام الشافعي

أولاً: تزكية النفس:

مفهوم تزكية النفس وأهميتها عند الشافعي

عند التأمل في شعر الإمام الشافعي والتعمق في دلالاته من حيث وصاياه التي تحمل في طياتها تزكية النفس وتهذيبها، نجد بكل وضوح أن تلك الصفات متجسدة حقيقة في شخصيته، فما تجد شيئا من شعره يدعو إلى فضيلة من الفضائل إلا وقد تخلق بها فعلاً أوقولاً، يظهر ذلك جلياً في أقوال أساتذته أو تلامذته أو من نقل عنه.

تزكية النفس عند الشافعي ظاهرة دينية تهدف بمجملها لمن يتخلق بها إلى أن يكون الإنسان منضبطاً بضوابط أخلاقية تمنعه من الإعتداء على حقوق الآخرين، ليس فقط على الصعيد الديني بل يشمل كل الأصعدة الاجتماعية.

"صنِ النفسَ واحملها على مايزينها تَعِشْ سَالِماً والقولُ فيكَ جَمِيلُ

ولا تُولِينَّ النَّاسَ إلاَّ تَجمُّلاً نبا بكَ دهرٌ أو جفاكَ خليلُ" [15].

الأسس العامة لتزكية النفس عند الشافعي

لا شك أن السير في هذا الطريق يوصل الإنسان إلى سمعة حسنة، وسيرة طيبة، تكفل له أن يكون مهذب النفس، فلا بد من أسس يلتزمها الإنسان في أحواله وتصرفاته، لعل أفضل طريق يمكن أن يأخذه إلى تلك المرتبة، هو أن يسلك طريق العلم، والذي بدوره ينمي لدى الشخص دوافع الأعمال الصالحة وفضائل الأخلاق الاجتماعية، فقد قال الخلوتي: "واعلم ان المقصود من العلم والعمل: تزكية النفس" [16]، ويبين الشافعي رحمه الله تعالى هذا المعنى في ديوانه، إذ كانت دعوته جلية، ظهرت في قوله:

"يا واعِظَ الناسِ عَمّا أَنتَ فاعِلُهُ يا مَن يُعَدُّ عَلَيهِ العُمرُ بِالنَفَسِ

اِحفَظ لِشَيبِكَ مِن عَيبٍ يُدَنِّسُهُ إِنَّ البَياضَ قَليلُ الحَملِ لِلدَنَسِ

15 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص99

16 الخلوتي، اسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الخلوتي، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، 328/8

كَحامِلٍ لِثِيابِ الناسِ يَغسِلُها وَثَوبُهُ غارِقٌ في الرِجسِ وَالنَجَسِ"[17].

حقيقة تزكية النفس عند الشافعي

لا شك أنت التفكر بأحوال الآخرة وما يسبق تلك الأحوال في الدنيا من مفارقة الحياة وما فيها من ملذات، يجعل الإنسان أكثر رغبة في السير في الطريق الذي يكفل له السعادتين الدنيوية والأخروية، سالكاً كل السبل المؤدية إلى ذلك، ومن هنا نعلم أن حقيقة التزكية عند الشافعي أفعال وليست أقوال، وأن الإدعاءات التي تعبر عن اصلاح والاستقامة إن لم تتحول إلى أعمل تطبيقية على أرض الواقع لا فائدة منها البتة، قال الشافعي مؤيداً هذا المعنى:

"تَبغي النَجاةَ وَلَم تَسلُك طَريقَتَها إِنَّ السَفينَةَ لا تَجري عَلى اليَبَسِ

رُكوبُكَ النَعشَ يُنسيكَ الرُكوبَ عَلى ما كُنتَ تَركَبُ مِن بَغلٍ وَمِن فَرَسِ

يَومَ القِيامَةِ لا مالٌ وَلا وَلَدٌ وَضَمَّةُ القَبرِ تُنسي لَيلَةَ العُرسِ" [18]

بعض النتائج المترتبة على تزكية النفس عند الشافعي

يبين رحمه الله تعالى النتائج المترتبة على تربية النفس وتهذيبها، فمن مظاهرها كما مر معنا، أنها ترفع مكانة الانسان وتجعل له السمعة الطيبة والمحل الأسنى بين الناس، وكذلك من نتائجها أنها تعين المسلم على أن يستعين بمنهج الصبر في مصاعب الحياة وبلائها، عبر عن ذلك بقوله:

"وإن ضاقَ رزقُ اليوم فاصبر إلى غدٍ عَسى نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزولُ" [19].

ثانياً: العفو:

هو من الأخلاق المحمودة الذي يجب أن يتصف به الإنسان، والمسلم على وجه الخصوص، فالعفو خلق لا يمكن أن نحصر دلالاته على معنى واحد، بل هو في الحقيقة خلق فيه من القوة والشجاعة ما يجعل الإنسان يتنازل عن حقه كرماً وإحساناً ورغبة بالوصول إلى أعلى المراتب وأكملها، والشافعي رحمه الله تعالى قد التزم بمبدأ العفو، مجنباً حياته الاجتماعية عداوة الناس وبغضهم، مستعيناً بذلك على منهج اعتمده في تعامله مع الناس قاطبة، الصديق منهم أو العدو، حفاظاً منه على التعامل مع الناس بأحسن شكل، نجد ذلك في شعره رحمه الله تعالى، عبر عنه بصورة أدبية فنية:

"لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أرحتُ نفسي من همَّ العداواتِ

إنّي أُحَيي عَدُوّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ لأدفعَ الشَّرَّ عني بالتحياتِ

وأُظْهِرُ الْبِشرَ لِلإِنْسَانِ أُبْغِضهُ كما إنْ قدْ حَشى قَلْبي مَحَبَّاتِ

17 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص75

18 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص75

19 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص99

النَّاسُ داءٌ وَدَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمُ وفي اعتزالهمُ قطعُ المودَّاتِ" [20].

من خلال ما سبق نجد أن العفو عند الشافعي خلق لا يستطيع أن يلتزمه إلا من اتصف بحسن التعامل مع الناس، في مجالسهم وتهاملاتهم، مع محسنهم ومسيئهم إذ لا بد في بعض الأحيان أن يتطلب الأمر أن يبتسم الرجل في وجه من يعاديه، اكتفاء شره وخصومته، وكذلك من معاني العفو عنده رحمه الله تعالى وهو من المعاني الذي ورد ذكره كثيراً في شعره، وفيه التنازل عن الحق كرماً وإحساناً، ويتمثل هذا المعنى في ذلك الخلق الذي يلتزمه الإنسان في حال مواجهته لإساءة الجاهل، لأن الرد على مثل هؤلاء يشجعهم على التمادي وسلوك طريق الشر، فقد ورد عن ابن قيم الجوزية قوله: "العفو: إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق" [21]، وهذا ظاهر في شعر الشافعي رحمه الله تعالى:

"قالوا سكتَّ وقد خوصمتُ قلتُ لهم إنَّ الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

والصمتُ عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفُ وفيه أيضاً لصونِ العرضِ إصلاحُ

أما تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وهْي صَامِتةٌ ؟ والكلبُ يخسى لعمري وهو نباحُ" [22].

ثالثاً: العلم:

لا يخفى على أحد أن من أراد أن يكون عالما لا بد له أن يسلك طريقه، وإلا سيبقى الانسان جاهلا مهما تقدم في العمر، لهذا نجد أن الكثير من الأشعار التي وردت في ديوان الشافعي تحمل في طياتها الدعوة إلى اغتنام الفرص في طلب العلم، أو مجالسة أهل العلم، أو ذكر فوائد العلم، نجد ذلك جلياً في أشعاره، فيقول رحمه الله تعالى:

"تعلم فليسَ المرءُ يولدُ عالماً وَلَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ"[23]

فوائد العلم عند الإمام الشافعي:

ويوضح الشافعي رحمه الله تعالى أن بالعلم ترتفع مكانة الإنسان بغض النظر عن الفئة العمرية، والعكس صحيح عندما يسيطر الجهل على ذلك الإنسان تنزل مكانته بين الناس وبغض النظر عن سنه ومنصبه، والعلم من أفضل الطرق التي تحرك الخيال داخل الإنسان لينسج من هذا قطعاً فنية تبرز للقارئ إبداعات عقلية تجعله في بعض الأحيان يتذوق مراد الشاعر، فيحاول أن يصطبغ بمدلولات مراده تقليداً وتطبيقا، والذي يعمل بالعلم وفي نفس الوقت يحمل طموحاً مليئا بالحالات الوجدانية لا شك أنه ستتكون له ملكة علمية ثقافية أدبية، تقوده على الأرجح إلى أرقى أنواع المعارف وأثمنها، فمن نتائج إندماج العلم الفكري والوجداني ظهور ثقافات أدبية تحمل عبيراً تفوح رائحته لكل من قرأه واطلع عليه، يقول الجاحظ: "قال سهل بن هارون العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم" [24]، والإمام الشافعي في ديوانه جمع بين العلم والوجدان، فأنتج أدباً تجلى فيه دعوة إلى العلم بأوضح العبارات، مبينا أن مكانة الإنسان متربطة ارتباطاً وثيقاً بمدى ثقافته العلمية، فقال:

---

20 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص48

21 ابن القيم الجوزية، شمس الدين بن قيم الجوزية، الروح، دار الكتب العلمية بيروت، 1975م، ص241

22 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص55

23 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص100

24 الجاحظ، البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة 1988م، 77/1

"وإنَّ كَبِير الْقَوْمِ لاَ علْمَ عِنْدَهُ صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عَلَيهِ الْجَحَافِلُ
وإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كانَ عَالِماً كَبيرٌ إذَا رُدَّتْ إليهِ المحَافِلُ" [25].

ثم إن صرف النظر عن العلم والإلتفات إلى غيره مما يتعلق بالمنافع الدنيوية لا بد أن يوصل الإنسان إلى أدنى درجة بين الناس، ورد في كتاب البيان والتبيين ما نصه: "كان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة في علمهم، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم وزهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم" [26]، ولذلك نجد أن الشافعي يحذر من ظاهرة الجهل، ويبين العواقب المترتبة عليها، ويعبر عن ذلك بصورة رائعة ومميزة، فقال:

"ومنْ لم يذق مرَّ التعلمِ ساعةً تجرَّعَ ذلَّ الجهل طولَ حياته
ومن فاتهُ التَّعليمُ وقتَ شبابهِ فكبِّر عليه أربعاً لوفاته
وَذَاتُ الْفَتَى واللَّهِ بالْعِلْمِ وَالتُّقَى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتهِ" [27].

ثم يعمل الشافعي من خلال شعره على توضيح شروط تحصيل العلم، وأنه لا بد من توافرها فيمن يرغب أن يترقى في درجات العلم، أورد تلك الشروط بقطعة شعرية فنية تختصر مقالات وكتب ألفت في هذا الشأن، فقال:

"أخي لن تنال علما إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان" [28].

رابعاً: التقوى:

لم يخل شعر الشافعي من ذكر التقوى وأحوالها، وهي صفات جليلة يتخلق بها الإنسان لبلوغ غايات عظمى، فالشافعي يرى أن التقوى أعمالاً وأقوالاً تجلب إلى النفوس الطمأنينة والسعادة والسيرة الحسنة، وإلا فلا بد أن يعرض الإنسان نفسه لأعمال وأقوال مناقضة تؤدي به إلى عار لا يمكن إزالته بسهولة، ولذا قيل: "المتّقي: من يقي نفسه عن تعاطي ما يعاقب عليه من فعل أو ترك" [29]، والمطلع على شعر الشافعي فيما يخص التقوى يجد أنه أوردها بطريقة توجيه النصائح، ينبغي لسالك طريقها أن يتصف بها، فقال:

"فَدَعْ عَنْكَ سَوءَاتِ الأُمُورِ فَإنَّها حرامٌ على نفس التَّقي ارتكابها
فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ تُرابُهَا كمثلِ زكاةِ المالِ تمَّ نصابها
وأَحْسِنْ إلى الأحرارِ تملِكْ رِقَابَهُمْ فَخَيْرُ تِجَارَاتِ الكِرَاءِ اكْتِسَابُهَا"[30]

25 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص100
26 مرجع سابق، البيان والتبيين 136/3
27 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص49
28 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص113
29 ابن الهائم، أبو العباس شهاب الدين ابن الهائم، التبيان في شرح غريب القرآن، تح: ضاحي عبدالباقي محمد، دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1423ه، ص47
30 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص45

ثم يبين الشافعي رحمه الله تعالى صورة من صور التقوى، وهو أن لا يركن الإنسان إلى الدنيا، لأنها وما فيها من ملذات لا تساوي شيئا أمام ما أعده الله تعالى للمتقين يوم القيامة، عبر عن ذلك بقوله:"

"وَلاَ تَمْشِينَ في مَنْكِبِ الأَرْضِ فَاخِراً وَسِيقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهرِ الفلاةِ سرابها
وَمَا هِيَ إلاَّ جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عليها كلابٌ همُّهنَّ اجتذابها" [31].

وقد تحدث الشافعي رحمه الله تعالى عن سعي الإنسان بكامل جهده ليصل إلى أعلى المراتب الدنيوية، فبين أن التقوى ترفع صاحبها عزاً ورفعة وكرامة، فالتقوى تحمل في طياتها الرفعة والعز لكل من يبتغيها، عبر عن ذلك بقوله:

"يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالي وتقوى الله أفضلُ ما استفادا" [32].

خامساً: الزهد:

ومن المواضيع التي تطرق إليها الشافعي في شعره الزهد، إذ يُعد الزهد أمراً مهما في حياة المسلم، فقد قال الإمام الغزالي : "الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا" [33]، والشافعي رحمه الله تعالى استعرض الزهد في أشعاره، وبين أن الزاهد ما ينبغي أن يتأثر بمصاعب الزمان وشدائده، فكل ذلك يمر ولا يدوم، فقال:

"دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَل مَا تَشَاءُ وطب نفساً إذا حكمَ القضاءُ
وَلا تَجْزَعْ لِحَادِثَة الليالي فما لحوادثِ الدنيا بقاءُ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَأَنِّي وليسَ يزيدُ في الرزقِ العناءُ
وَلا حُزْنٌ يَدُومُ وَلا سُرورٌ ولا بؤسٌ عليكَ ولا رخاءُ" [34].

ثم إنه رحمه الله تعالى تناول الزهد بأساليب وطرق متعددة، فبعد أن ذكر بعض الوصايا للزاهد أراد أن يبين صفات الزهاد وأحوالهم، وكيف أنهم جعلوا من الدنيا مطية يصلون من خلالها إلى غاياتهم السامية، ألا وهي مرضاة الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقال:

"إنَّ للَّهِ عِبَاداً فُطَنَا تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذوا صالحَ الأعمالِ فيها سفنا" [35].

سادساً: النصيحة:

31 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص45
32 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص62
33 الغزالي، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 217/4
34 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص35-36
35 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص117

هي أدب رفيع، وخلق كريم من أخلاق الدين الاسلامي، وبغض النظر عن المقاصد التي يضمرها الناصح، فإنا هنا نخص تلك النصيحة التي تحمل في طياتها إرادة الخير والنفع للمنصوح، هكذا عرفها ابن الأثير رحمه الله تعالى بقوله: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له" [36]، فحال الناس ومعاملاتهم وما يترتب عليها من مخالفات، وحتى على الصعيد الديني، أوجد هذا الحال ضرورة ملحة للقيام بواجب النصيحة، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى ذكر من خلال أشعاره أن للنصيحة أسلوبها، كما أن لها آدابها، والأهم من ذلك أن يكون دافع الناصح إرادة المنفعة والخير لمن ينصحه، بغية أن يحفظه ويحميه من الوقوع في الشر أو في شر الأشرار، عبر عن ذلك بقوله:

"تَعَمَّدني بِنُصْحِكَ في انْفِرَادِي وجنِّبني النصيحةَ في الجماعهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ من التوبيخِ لا أرضى استماعه

وَإِنْ خَالَفْتنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلاَ تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَه" [37].

وهذا الفعل الحسن ينبغي أن لا يظهر إلى العلن، بل ينبغي أن يكون من خلال أسلوب شائق، يتقبله المنصوح بصدر رحب، وهذا بلا شك أدعى للإمتثال لتعليمات الناصح، وهذا ما رأيناه في الأبيات السابقة.

سابعاً: الصداقة:

من طبيعة الإنسان أنه يرغب بأن يكون له أصدقاء، يجالسهم ويزاورهم ويشعر معهم بالأنس والراحة، ويبعد جانب الوحشة التي بدورها تؤدي في أغلب الأحيان إلى الملل، فالصداقة جانب مشرق في حياة الإنسان تساعده على تجاوز العقبات التي ربما يمر بها، وتفتح أمامه آفاقاً يمكن من خلالها تحسين حياته الاجتماعية، والصديق يساند صاحبه، ويشاركه أفراحه وأتراحه، ويحمل عنه هموم الحياة ومصاعبها، وكما يقال الصديق وقت الضيق، فهذه هي الصفات الحقيقية للصديق الوفي والمثالي، والإمام الشافعي في ديوانه لم يغفل هذا الجانب، بل توسع فيه، وذكر الصفات التي يجب أن يتصف بها الصديق الصادق، وبين أن خلو الحياة من مثل هؤلاء سينعكس سلباً على سير الحياة الإجتماعية، فقال:

"إذا المرءُ لا يرعاكَ إلا تكُّلفاً فدعهُ ولا تكثر عليه التَّأسفا

فَفِي النَّاسِ أبْدَالٌ وَفي التَّرْكِ رَاحةٌ وفي القلبِ صبرٌ للحبيب ولو جفا

فَمَا كُلُّ مَنْ تَهْوَاهُ يَهْوَاكَ قَلْبُهُ وَلا كلُّ مَنْ صَافَيْتَه لَكَ قَدْ صَفَا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً فلا خيرَ في ودٍ يجيءُ تكلُّفا

ولا خيرَ في خلٍّ يخونُ خليلهُ ويلقاهُ من بعدِ المودَّةِ بالجفا

36 ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين الشيباني الجزري ابن الأثير، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناجي، دار المكتبة العلمية، بيروت 1979م، 63/5.

37 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص85

وَيُنْكِرُ عَيْشاً قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَيُظْهِرُ سِرًّا بِالأَمْسِ قَدْ خَفَا

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا إذا لَمْ يَكُنْ بِهَا صديق صدوق صادق الود منصفا" [38].

فهنا نرى أن الإمام الشافعي قد تطرق إلى هذا الموضوع مقتصراً على الأجزاء المهمة التي تمس جوهره، فقد نبه إلى أهمية الصداقة، ذاكراً الصفات اللازمة في الصديق الحقيقي.

ثامناً: الحب:

تعبير واسع يحمل معانٍ كثيرة، ويكاد يجمع علماء اللغة على أن الحب لا يمكن أن يعرَّف بجملة جامعة تفي بالمضمون، فكل يعرّفه بطريقة مختلفة، وعلى حسب هواه، فمنهم من يربطه بالله تعالى وباقي أنواع الحب متفرعة منه، ومنهم من يربطه بالحب الأخوي، وكذلك الحب لمصلحة، وغيرهم يجعل النساء أساساً فيه، سواء أكان الحب العذري أوغيره، وأنواعه كثيرة، لكن بغض النظر عن هذه المسميات، فإنا نورد هنا الحب الذي حث عليه الاسلام وكل ما يتعلق به، قال الإمام القشيري" "وعبارات الناس عن المحبة كثيرة، وتكلموا فِي أصلها في اللغة، فبعضهم قال: الحب اسم لصفاء المودة، وقيل: إنه مشتق من حباب الماء بفتح الحاء وهو معظمه، فسمي بذلك، لأن المحبة غاية معظم ما فِي القلب من المهمات" [39]، والإمام الشافعي في ديوانه جعل للحب الذي يتوجه به العبد إلى الله تعالى ورسوله وعباد الله الصالحين علامات، إن تحققت كانت دليلاً على صدق الحب، فمن علامات الصدق في الحب أن يكون المحب لمن يحب مطيع، يفعل ما يأمر به وينتهي عما نهاه، راجياً من الله تعالى أن يثيبه على أعماله في دنياه وأخراه، وأما إذا لم يلتفت الإنسان إلى هذه المعاني وتوجه بحبه للدنيا وزينتها مثلاً، فإنه عندها لا شك أنه سيتحول إلى إنسان تسيطر عليه غرائزه وشهواته، ويسلك طريقاً مهلكاً يبعده عن مرضاة الله تعالى، ولن يجد وقتاً يتوجه فيه إلى الله تعالى بالحمد والشكر على ما أغدق عليه مولاه من نعم لا تعد ولا تحصى، يقول الشافعي رحمه الله تعالى:

"تَعْصِي الإله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هذا محالٌ في القياس بديعُ

لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

في كلِّ يومٍ يبتديكَ بنعمةٍ منهُ وأنتَ لشكرِ ذاكَ مضيعُ" [40].

---

38 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص88

39 القشيري، عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري، الرسالة القشيرية، تح: د عبدالحليم محمود، د محمود بن الشريف، دار المعارف القاهرة، 486/2

40 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص83-84

ولم يهمل الشافعي جانب الحب لعباد الله الصالحين، بل جعل لهم نصيباً من محبته، مبيناً أن محبتهم جزء من الإيمان، وأنها تعود بالفائدة على صاحبها في الدنيا والآخرة، فقال:

"أحِبُّ الصالحين ولست منهم لعلي أن أنالَ بهم شفاعة

وأكرهُ من تجارتُه المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة" [41].

ثم يبين الإمام الشافعي أن الحب يجب أن يكون متبادلاً بين الأصدقاء، وأن يكون القصد من ورائه الحب لله، فالحقيقة أن الحب إذا كان لمصلحة، أو من طرف واحد فإنه من شر البلايا، فمن من الغرابة بمكان أن تبادل الحب لشخص ما وهو يتعامل معك باللامبالاة، تتوق إلى رؤيته ومجالسته وهو بالمقابل لا يلقي لك بالاً، متعللاً بأعذار واهية، إنه الحب المصطنع في أدنى صوره، والشافعي عبر عن هذا بقوله:

"وَمِنْ الْبَلِيَّة أنْ تُحِ بَّ وَلاَ يُحِبُّكَ مَن تُحِبُّهْ

ويصدُّ عنك بوجههِ وتلحُّ أنتَ فلا تُغبُّه" [42].

تاسعاً: فوائد الإغتراب:

"الغربة: الاغتراب عن الوطن" [43]، ومن الممكن أن نعتبر أن الإغتراب صفة ملازمة للوجود الإنساني وطبيعته، فما من عصر من العصور إلا وقد حمل في طياته حكايا الإغتراب وقصصه، وأنباء المغتربين وأحوالهم، ولعل منبع هذا كله يكمن في أن الإنسان في حقيقته وأصله مغتربٌ، تغرب عن موطنه الأصلي، هذا ما أورده ابن رجب الحنبلي بقوله: "فالمؤمن في الدنيا غريب، لأن أباه لما كان في دار البقاء ثم خرج منها فهمه الرجوع إلى مسكنه الأول، فهو أبداً يحن إلى وطنه الذي أُخرج منه" [44]، وإذا نظرنا في حياة الإمام الشافعي نجد أنها مليئة بالأسفار والإغتراب والبعد عن وطنه، كان ذلك كله في سبيل طلب العلم وتحصيله والبحث عنه، فقد أمضى معظم حياته بعيداً عن موطنه، متنقلاً بين البلدان، ولذلك عندما تحدث عن الغربة والإغتراب في ديوانه نجد أنه صورها وأحوالها بصور بديعة، كانت

41 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص84

42 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص44

43 الفراهيدي، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تح: د مهدي المخزومي، د ابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، 410/4

44 ابن رجب الحنبلي، كشف الكربة في وصف أهل الغربة، ابن رجب بن الحسن السلامي الحنبلي، تح" أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2003، ص327.

دعوته إلى الإغتراب جلية، تظهر من خلال ذكره للفوائد الجمة للإغتراب، وأنها طريق موصل إلى معالي الأمور، فقال:

"تغربْ عن الأوطانِ في طلبِ العُلا وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ

تفرجُ همٍ واكتسابُ معيشةٍ وعلمٌ وأدابٌ وصحبةُ ماجدِ" [45].

فلا غرابة إذا قلنا أن دعوة الإمام الشافعي الإنسان أن يغترب عن بلده ووطنه إنما هي توجيه حقيقي لأن يستبدل المسار الذي يعيشه إلى مسار يؤمن له المزيد من الراحة والطمأنينة والعلم، فالإغتراب في معناه العام صراع بين حال الإنسان وواقعه الذي تربى عليه وبين مستقبل يحمل في مضمونه أملاً وتصحيحاً لواقع -ربما يكون سيئاً- عايشه وعاينه، فالشافعي من خلال أشعاره في خصوص الغربة وجه ودعا الفرد إلى السفر والتغرب عن الوطن، بغية تحصيل الفوائد التي يسعى لتحقيقها في كل وقت وحين، فالمغترب يسعى جاهداً لتغيير واقعه إلى واقع أفضل وأحسن حالاً وعلماً، والإمام الشافعي عبر عن ذلك بقوله:

"ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبِ مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ

سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقهُ وَانْصِبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يصب" [46].

الخاتمة

الحمدلله الذي بنعمته ومنته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

قيل في حق العلماء: "إن البشر يكدون ويسعون، ويسيرون في صحراء الحياة، وقيد نواظرهم كواكب ثلاثة، هي هدفهم وإليها المسير، ومنها الهدي وهي السراج المنير، وهي الحقيقة والخير والجمال.....فلولا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء، ولولا جمال الخير ما دعا إليه المصلحون. "[47]، والحقيقة أنه يمكن أن يقال هذا في حق الشافعي رحمه الله تعالى، إذ كان لأشعاره ناهيك عن علمه ذلك الأثر البارز في المجتمع الإسلامي بكل طبقاته، فالناس تلقت تلك الأشعار بالقبول، وما تزال تتداوله إلى زماننا هذا.

45 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص60

46 مرجع سابق، ديوان الإمام الشافعي ص39

47 على الطنطاوي، من غزل الفقهاء، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى 1988م، ص6.

بعون الله تعالى وفضله تم الإنتهاء من كتابة هذا البحث، تحت عنوان(الموضوعات الشعرية الشائعة في ديوان الإمام الشافعي، دراسة وتحليل).

وقد تتضمن هذا البحث بعض المواضيع التي اهتم الشافعي بذكرها في ديوانه أكثر من مرة، وهذه المواضيع تتمثل في تزكية النفس، العفو، العلم، التقوى، الزهد، النصيحة، الصداقة، الحب، فوائد الإغتراب.

ومن خلال البحث اتضحت أمامنا النقاط المهمة التالية:

أولاً: إن ديوان الإمام الشافعي يحتاج إلى دراسة أدق وأعمق من الدراسات السابقة، وخاصة في خضم تجاذبات بين منكر ومصدق في نسبة الديوان بأكمله للإمام الشافعي رحمه الله تعالى، إذ لا يخفي الباحث أنه أثناء التعمق في أشعار الإمام الشافعي وما ينسب إليه وجد الكثير من المخالطات، فكثيرا ما نجد أشعارا نسبت إليه زورا ودون توثيق من المصادر المعتمدة، بل حتى لا توجد تلك الأشعار المنسوبة للشافعي إلا في وسائل التواصل الاجتماعي التي تفتقد في أكثر الأحيان إلى المصداقية، وعلى الباحث وحتى القارئ أن يتوخى الحذر في إثبات ونقل مثل هذه الأشعار.

ثانياً: احتوى ديوان على الكثير من المواضيع الاجتماعية، وكل منها من الممكن أن يُخصص في بحث مستقل، وقد اقتصر الباحث على ذكر بعض المواضيع الشائعة والتي تمس الحياة اليومية للمسلم، ولا شك أن ما ثبت في ديون الشافعي فيه ما فيه من التجديد والأصالة، بدليل أنه فرض لنفسه مكانا في حافظة المثقف المسلم، بل ربما العامّي معه أيضا، حيث يحتفظ كل واحد منا في ذاكرته بشواهد شعرية تدعم الرأي الذي يرويه ضمن موضوعات معينة.

ثالثاً: تزكية النفس والعفو والتقوى والزهد عند الشافعي ظواهر دينية تهدف بمجملها لمن يتخلق بها إلى أن يكون الإنسان منضبطاً بضوابط أخلاقية تمنعه من الإعتداء على حقوق الآخرين، ليس فقط على الصعيد الديني بل على جميع الأصعدة الاجتماعية الأخرى.

رابعاً: يظهر في ديوان الشافعي أن صاحب العلم يحمل طموحاً مليئا بالحالات الوجدانية، لا شك أنه كلما تقدم علما تكونت له ملكة علمية ثقافية أدبية، تقوده على الأرجح إلى أرقى أنواع المعارف وأثمنها.

خامساً: النصيحة والصداقة والحب جوانب مشرقة في حياة الإنسان تساعده على تطوير حياته الاجتماعية وتحسينها من خلال بناء علاقات وصداقات بين أفراد مجتمعه.

سادساً: الإغتراب عند الشافعي دعوة منه لأن يغير الإنسان واقعه إلى الأفضل، إلى واقع يؤمن له المزيد من الراحة والطمأنينة، فالإغتراب في معناه العام صراع بين حال الإنسان وواقعه الذي تربى عليه وبين مستقبل يحمل في مضمونه أملاً وتصحيحاً لواقع -ربما يكون سيئاً- عايشه وعاينه،

سابعاً: لم يتوسع الباحث في السيرة الشخصية والعلمية للإمام الشافعي، وإنما اقتصر على ذكرها بشكل مختصر، لأنه من المعلوم أن مبحث الإمام الشافعي فيما يتصل بصفته الشخصية والعلمية أشبع بحثاً كما يقال.

ثامناً: المواضيع التي اكتنفها ديوان الشافعي مهمة في الحياة اليومية للمسلمين، ويأمل الباحث أن يكون هذا المبحث منطلقاً له لدراسة أدق وأشمل لديوانه، دراسة عامة تحليلية تشمل كل المواضيع التي تنسب إليه من خلال الإعتماد على المصادر الموثوقة والمعتمدة.

هذه هي أهم النقاط التي توصل إليها الباحث، سائلاًالمولى المولى الرحمن الرحيم أن يكرمه ببلوغ المراد منها، وأن يعينه على دوامها، والحدلله رب العالمين أولاً وآخراً.

فهرس المصادر والمراجع

- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين الشيباني الجزري ابن الأثير، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناجي، دار المكتبة العلمية، بيروت 1979م.

- ابن خلكان، أبو العباس ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، دار صابر بيرون، الطبعة الأولى 1971م.

- ابن عساكر، أبو القاسم المعروف بابن عساكر، تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر 1995م.

- ابن رجب الحنبلي، كشف الكربة في وصف أهل الغربة، ابن رجب بن الحسن السلامي الحنبلي، تح" أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2003.

- ابن القيم الجوزية، شمس الدين بن قيم الجوزية، الروح، دار الكتب العلمية بيروت، 1975م.

- ابن الهائم، أبو العباس شهاب الدين ابن الهائم، التبيان في شرح غريب القرآن، تح: ضاحي عبدالباقي محمد، دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1423ه.

- البيهقي، أحمد بن الحسين البيهقي، مناقب الشافعي، تح: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى 1970م.

- الجاحظ، البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة 1988م.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر المشهور بالخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح: د بشار عواد معروف، دارالغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الأولى 2002م.

- الخلوتي، اسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الخلوتي، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث القاهرة، الطبعة 2006م.

- الرازي، أبو محمد التيمي الحنظلي الرازي بن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، تح: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 2003م.

- الرومي الحموي، شهاب الدين الرومي الحموي معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الاولى 1993.

- الشافعي، محمد بن ادريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، شرح: د عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت.

- على الطنطاوي، من غزل الفقهاء، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى 1988م.

- الغزالي، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت.

- الفراهيدي، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تح: د مهدي المخزومي، د ابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

- القشيري، عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري، الرسالة القشيرية، تح: د عبدالحليم محمود، د محمود بن الشريف، دار المعارف القاهرة.

- المزي، يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: دبشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى 1980م.

-النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تخريج: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت.

-اليحصبي، أبو الفضل بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: جملة من العلماء، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، الطبعة الأولى.